ISSN: 2581-3455

العدد السادس - المجلد الثالث

يناير - يونيو 2020

الجيل الجديد

مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية

مركز الدراسات العربية والإفريقية، مدرسة دراسات اللغة والأدب والثقافة
جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي، الهند

www.aljeelaljadeed.in

الهند في الرحلة العربية المعاصرة
"نهر على سفر" أنموذجًا

د. هيام المعمري*
Email: halmaamari10@gmail.com

ملخص البحث:

تناقلت كتب التاريخ والأدب ذكر الهند في مؤلفات عدّة، ونقلت صورتها بعيون، وألسنة، وحروفٍ عربيّة وغربيّة... وكانت محطّ اهتمام الشرق والغرب، ومطلب ارتياد الفضاءات والآفاق، ومطمح عشّاق العجائب والغرائب، ومطمع مستعمري الأقطار والأمصار...

والمتتبّع أدب الرحلة العربية يجد أنّها لم تقف في استكشافها الهند عند أشهر رحّالتها العرب والمسلمين في القرون الماضية، أمثال: "المسعودي" (ت 346هـ/957م)، و"البيروني" (ت 440هـ/1048م)، و"ابن بطوطة" (ت 779هـ/1377م) وغيرهم، بل فتحت الأبواب على مصاريعها لمن جاء بعدهم، واستمرت في سيرها إلى عصرنا، وستستمرّ ما شاء المولى لها ذلك.

ولكل رحلة من هذه الرحلات طابعها المميّز، ونكهتها الخاصة، وانطباعها المثير... ومن أمثلة هذه الرحلات العربية المعاصرة يمكن التوقف عند رحلة الأديب والصحفي والرحالة العربي المعاصر "أشرف أبو اليزيد" (من مواليد عام 1963م)، في رحلته إلى الهند وإلى عوالم أخرى، اختار لها عنوان "نهر على سَفَر"؛ ليكون البحث في هذه الرحلة عن نظرة هذا الأديب والرحالة المعاصر إلى الهند، وطريقته في الحديث عن تاريخها وحضارتها وثقافتها، وأسلوبه في وصفها، ووصف مدنها، ومعمارها، وأهلها، وعاداتهم، وطقوسهم، وديانتهم... ممّا وقعت عليه عينه، والتقطتها عدسته. فما خصائص هذه الرحلة؟ وبم تتميز عن غيرها؟ وكيف سيظهر أثر أدبيّة الرحالة هنا في أسلوب كتابة رحلته؟ وهل سيؤثّر عمله الإعلامي فيها؟ وماذا عن التقنيات أو

* أستاذ مشارك، جامعة عجمان، الإمارات العربية المتحدة.

www.aljeelaljadeed.in

الوسائل التي استخدمها في تحقيق مراده؟ وكيف سيكون الانطباع العام بعد الخروج من هذه الرحلة، ووضع عصارتها بين يدي متلقيها؟

هذا ما يحاول البحث تتبّعه، واستكشاف معالمه، وإدراك كنهه وخباياه ضمن رحلة أدبية معاصرة.

كلمات مفتاحية: الأدب، الرحلة العربية، نهر على سفر، الهند.

Abstract:

India is a multicultural and one of the most ethnically diverse nations, which attracts historians, geographers and writers. Not only the western world, rather it has caught the eyes of the eastern world too. The Arab world has also taken the interest in exploring India since centuries. Al-Mas'udi, Al-Bairuni and Ibn-e-Batuta were the famous Arab travellers. They gave a long description of its religious rituals, socio-cultural norms and traditional perspectives in their works.

As for the contemporary era, many Arab writers and travellers have portrayed India by their travelogues. Ashraf Abu al-Yazeed is one of these contemporary Arab writers. He took his journey to India and wrote his travelogue "نهر على سَفَر" to depict India, history, civilization, culture, social norms, religious customs and whatever he saw during his journey to India.

The purpose of this study is to describe the characteristics of his travelogue and how it can be distinguished to others and what is the impact of this travelogue on literature.

نبذة عن المؤلِّف والمؤلَّف:

ترد في "نهر على سفر"[1]، وفي مراجع أخرى، معلومات عن كاتبه أشرف أبو اليزيد، وفيها أنه عمل محررًا بمجلة "العربي" الكويتية، منذ عام 2002م. وهو -كذلك- روائي، وشاعر، وصحفي مصري، وعضو في اتحاد كتاب مصر، ورئيس تحرير (آسيا إن) العربية، ورئيس جمعية الصحفيين الآسيويين (AJA) حاليًا.

وُلِد في الـ13 من مارس عام 1963م، ودرس الأدب الإنجليزي، وعمل بالترجمة قبل أن يتفرّغ للصحافة الثقافية، فكان سكرتير التحرير والمشرف الفني في "مجلة

[1] أبو اليزيد، أشرف. نهر على سفر، ط1. الكويت: وزارة الإعلام- مجلة **العربي**، 2015م، ص:325 وما بعدها.

www.aljeelaljadeed.in

نزوى"، بسلطنة عُمان، و"مجلة أدب ونقد"، بجمهورية مصر العربية، والمحرّر الثقافي لوكالة أنباء "رويترز" في القاهرة.

نشر استطلاعاته المصورة عن أكثر من 30 بلدًا في "مجلة العربي"، وقدّم للمكتبة العربية نحو 30 كتابًا بين التأليف والترجمة، كما قدّم للتلفزة سلسلة من اللقاءات، مع مشاهير الثقافات غير العربية، في برنامجه الآخر الذي بثّه تليفزيون دولة الكويت.

نال عددًا من الجوائز المهمة، وحظي بعدد من التكريمات، منها: جائزة الصحافة العربية، في فرع الثقافة، من نادي دبي للصحافة، (2015م)، وجائزة مانهي للأدب (Manhae Grand Prize in literature)، (2014م)، في كوريا الجنوبية. وكرّمه مكتب سفارة جمهورية مصر العربية الثقافي في الكويت، بدرع نجيب محفوظ للإبداع، (2014م). وكرمته جمهورية تتارستان، بروسيا الاتحادية، مرتين، بدرع شخصية العام الثقافية؛ لدوره في التعريف بالثقافة التترية، (2012م)، ودرع اتحاد الكتاب ومسرح الطفل للدمى؛ لترجمته عملين للشاعر التتري عبد الله طوقاي، كتبهما للأطفال، (2013م). إنه شارك في مؤتمرات وندوات وفعاليات ثقافية في عدد من الدول العربية وغير العربية.

ويأتي كتابه "نهر على سفر" ليمثّل أحد الاستطلاعات الصحفية المصوّرة التي تميّزت بها مجلة "العربي"، لعدد من بلدان العالم ومدنه، وليكون مادّة صحفيّة تجمع بين المعرفة والمتعة، ومرجعًا مهمًّا للباحثين والدارسين والمثقّفين[2].

ويصفه صاحبه بأنّه سيرة مكان تحاول تحليل المضمون، بعيون المقيمين فيه، والعابرين به، والمهاجرين إليه. ويرى أن السفر لا يكتشف البشر، ولا الأمكنة، بل يعيد اكتشاف المرء ذاته. وهنا دعوة لاكتشاف الذات، وكتابة الصفحات الخاصة بها...[3].

---

[2] ينظر: تقديم عادل سالم العبد الجادر؛ رئيس تحرير مجلة العربي، في تقديمه الكتاب، ص:4-5.

[3] مقدّمة المؤلّف، ص:6-7.

www.aljeelaljadeed.in

سيمائيّة العنوان:

يأتي عنوان "نهر على سفر" ليعبّر عن مجموع الاستطلاعات والتقارير المصوّرة التي أنجزها أشرف أبو اليزيد خلال سنوات متقطعة عدة، وليَعبُر خلالها آلاف الأميال، ويجمع مئات المعلومات، ويلتقط كثيرًا من الصور، ويلتقي عددًا كبيرًا من الأفراد والشخصيات، ويقف على الشواهد والمعالم المتناثرة، ويدوّن الذكريات، ويختزل كلّ هذا في نهر دفّاق على سفر ومهل...

جمع أبو اليزيد في هذا السِّفر حصيلة "اثنتي عشرة رحلة"، أردفها في الختام بموضوع "فنّ المنمنمات... الأدب والتاريخ والأسطورة".

وقد نظم أبو اليزيد، بالعربية، عددًا من الأبيات الشعريّة؛ لعمل مصور قصير "فيلم"، يتناول الكتاب والمؤلّف، مدّته (03 دقائق، و27 ثانية)، ويوائم بين الأبيات والصُّور الملتقطة له في الأماكن التي زارها. أخرجته المخرجة فاطمة الزهراء حسن، و"منتجه" الفنّان رائد مهدي، وتُرجمت الأبيات إلى الإنجليزية، والألمانية (بترجمة حسن حميدة)، والكورية (بترجمة كيم إيه رام)، وفيها يقول:

ولي قلبٌ إذا خَفَقَ رأيتَ صدَاهُ بالقَمَـــرِ
بَنَى جِسْرًا إلى جُزُرٍ بها الغجريّ والتَتَـــريّ
ومجدافًا مراكبِهِ ثنائي الشِّعْرِ والنّثْـــر
وعن اسْمي ستسْأَلُنِي "أنا نهرٌ على سَفَـــرِ"
أغنّي الآهَ في الهنْد فيرقصُ في الحشا وتَرِي
يُجيبُ اللّيلُ في السِّنْدِ مُنَمْنَمَةً من الـــدُّرَرِ
أنا البوذيُّ في الصّين وفي كوريا سَما قَـدَري
أنا الملاّحُ للأبد أنا "نهرٌ على سَفَـــرِ"
أنا السّلطانُ في "أجْرَا" أنا الدّرويشُ والقَـــدَرِيْ
أنا "الرُّوميّ" في دربي حَريرٌ طابَ بالشّجَـــرِ
أرى الموسيقى في الحَجَرِ أرى الخَلاّقَ في البَشَـــرِ

www.aljeelaljadeed.in

أنا الإنسانُ، ترحالٌ وحلٌ أنا نهرٌ على سَفَـــــرِ"[4]

ويُلحظ من عنوان الكتاب، ومن الأبيات المنظومة أن "النهر" قد يكون الكاتب نفسه؛ فهو يرتحل هنا وهناك، وينساب بين الأمكنة، ويترقرق بين الجنبات، ويمضي بيُسرٍ وهدوء، متخلّلا الأزقّة والحارات...

و"النّهر" -عادة- عذب، هادئ، ليس كالبحر الغاضب الهادر، ولا المحيط الضّخم المترامي الأطراف، ماؤه عذب زلال، لا ملح أجاج... وكأنّ بالكاتب يقول: أنا هو هذا النّهر، في الحلّ والتّرحال... يحمل الأسرار، ويطرح جانبًا تلك المواقف السلبية أو السيئة التي يمكن أن يكون قد مرّ بها، ويمتد في الآفاق الرحبة؛ ليمهّد للخصب، ويزرع الخير، والابتسامة، ويقطف ثمار التسامح والإخاء...

وخلال ترحاله كان الكاتب يمّ بعدد من الأنهار المتوغلة في أعماق الأرض والتاريخ، مصادفًا لها ومصاحبًا إياها؛ مثل "الفولجا" و"الكاما" و"كازانكاه"[5]، فكأنّه يستحضر خلاله مروره بها ورؤيته إياها نهر موطنه الحبيب؛ "النّيل" العظيم؛ فيتماهى معه، ويحمله أينما ذهب، ويستمدّ منه القوّة والعطاء والامتداد.

وتأتي الكلمة الثانية في العنوان لتأخذ لها دلالتها الخاصة، وتأثيرها المطلوب؛ فالنهر "على" سفر، وليس "في" سفر مثلاً، وإن كان يمكن أن تفي كلمة "في" ببعض الغرض، أو أنّها لربّما راودت الكاتب وهو يختار عنوانًا جامعًا لعمله؛ ذلك أن كلمة "على" تحمل معنى الاستعلاء، وهو المعنى الأصلي أو العامّ في استعمالها، حقيقةً على الأغلب؛ نحو قوله تعالى: "وعَليها وعَلى الفُلْك تُحمَلون" (المؤمنون:22)، أو معنويًّا؛ نحو

---

[4] جاءت هذه الأبيات في أكثر من موقع على الشبكة العنكبوتية، منها ما يأتي:

-صفحة أشرف أبو اليزيد، تاريخ النشر: 20 فبراير 2016م، تاريخ الاطلاع: 20 يناير 2020م، https://www.youtube.com/watch?v=E9vpijJXey0 https://www.youtube.com/watch?v=-et44kV-PVw

-مقال بعنوان: **نهر على سفر... في أمسية للمكتب الثّقافيّ المصريّ بالكويت**، تاريخ النشر: 20 فبراير 2016م، تاريخ الاطلاع: 01 يناير 2020م، http://ar.theasian.asia/archives/30017

ووزّعت على حضور الأمسية نسخ من "الفيلم".

[5] أبو اليزيد، أشرف. نهر على سفر. ص:105.

www.aljeelaljadeed.in

قوله سبحانه: "وَلَهُم عَلَيَّ ذَنْبٌ" (الشّعراء:14)، أو مجازًا على الأقلّ؛ إن كان على ما يقرب من المجرور؛ نحو "أَو أَجِدُ عَلى النّارِ هُدى" (طه:10). وقد تحمل "على" معنى "في"[6]؛ فتأتي على "الظرفيّة"؛ نحو قوله عزّ وجلّ: "وَدَخَلَ المَدينَةَ عَلى حينِ غَفلَةٍ مِن أَهلِها" (القصص:15)، أي: في حين غفلة. وفي هذا يقول ابن مالك (ت 672هـ) في ألفيّته المشهورة:

"على" للاستعلا ومعنى "في"، و"عن" بِعَنْ -تَجاوُزًا- عَنى مَن قَد فَطِن

وقَد تَجي مَوضِعَ "بَعْدٍ" و"عَلى" كَما "عَلى" مَوضِعَ "عَنْ" قَد جُعِلا[7]

ويُعرف هذا في علم النحو بـ"التضمين"، وفائدته "أن يُدلَّ بكلمة على معنى كلمتين، يدلّك على ذلك أسماء الشرط والاستفهام"[8]. وقد ذكر في مواضع عدّة من كتب النّحاة وعلماء العربيّة، مثلما فعل "ابن جنّي" (ت392هـ)؛ عندما أفرد له بابًا سمّاه: "باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض"[9]، وفيه يقول إن النّاس أُلِفَت هذا الاستعمال كثيرًا، حتى نبّه إلى ضرورة أن يكون ذلك بقدر، دون تفريط أو إفراط، أي أن يكون "بمعناه في موضعٍ دون موضع، على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوّغة له، فأمّا في كلّ موضع وعلى كلّ حال فلا"[10].

وبالعودة إلى عنوان الكتاب مجدّدًا: "نهر على سفر"، والكلمة الثانية فيه يُلحظ أن الاستعلاء الحقيقيّ غير متحقّق هنا؛ فالنهر لا يعلو حقيقة، بل الأشياء هي التي تعلو فوقه وتطفو عليه، وأما عن الاستعلاء المجازي فسيؤوّل على أنّ النّهر هنا

---

[6] ورد هذا في كثير من كتب النحو، منها مثلا: الأنصاريّ، ابن هشام. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط1. بيروت-لبنان: دار الفكر، 1992م، ص:191. ويذكر ابن هشام تسعة معان لـ"على"، ينظر: ص:190-193.

[7] ابن عقيل، عبد الله بن عقيل العَقيليّ المصريّ الهمْداني. شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، ط20، ج3. القاهرة: دار التراث، 1980م، ص:22-23.

[8] الأنصاري، ابن هشام. مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، ص:687.

[9] ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص، تح: محمد علي النجّار، ط2، ج2. القاهرة: دار الكتب المصريّة، 1952م، ص:306.

[10] المرجع نفسه، ص:308.

www.aljeelaljadeed.in

كالإنسان، بل هو الكاتب عينه الذي يرى ذاته نهرًا على موعد دائم مع السفر والترحال... وإن كان يحمل معنى "في"؛ فهو كذلك نهر بشري، وشعور إنساني "في" سفر مستمرّ وحركة دائمة.

وتأتي -ختامًا- كلمة "سفر"، شأنها في ذلك شأن نهر، في التنكير وعدم التعريف، وفي حروف ثلاثة، لكلّ منهما، وحركات متقاربة، ونهاية واحدة، مكوّنة كلمتين متناغمين صوتًا وصرفًا ونحوًا ودلالةً، في جرس موسيقيّ خفيف، وفي دلالة تحمل معنى الترحال واكتشاف المجهول، بكلّ ما يحمله ذلك المجهول من شغف، ومتعة، ومجازفة... ولتدلّ -كذلك- كلمة "السّفر" وحدها على الغاية والهدف الحقيقي من الكتاب، ومجال تأليفه ضمن أدب الرحلة، ولينطبق العنوان على المضمون، ويعبّر عنه.

وفي إشارة سريعة يمكن أن يُلمِح لنا عنوان "نهر على سفر" ببساط علاء الدين السحري الذي كان يعتليه في أسفاره السحرية الجميلة العالقة بالذاكرة الجمعية دائمة الحنين إلى الماضي الجميل، والسفر إلى عوالمه السحريّة الخلابة...

صفحة الغلاف:

جميل أن يكون مصمّم غلاف المؤلَّف أو الكتاب هو المؤلِّف أو الكاتب نفسه، وهو ما فعله أشرف أبو اليزيد هنا؛ عندما اختار صورة كان قد التقطها بعدسته؛ لتمثّل صورة الغلاف، وهي الصورة نفسها التي اختارها لتكون مدخل أحد فصول كتابه كذلك.

www.aljeelaljadeed.in

وقد يكون هذا الاختيار مرتبطًا بأسباب عدّة أدّت إليه، سواء أقصد الكاتب تنبيهنا إليها أم لم يقصد، وسواء أكانت أسبابًا نفسيّة، أم فنّيّة جماليّة، أم غيرها... فهو صحفي ومصوّر، ويعرف أسس التقاط الصور وزواياها وإضاءاتها، وأنواع آلات التصوير أو "الكاميرات" (Camera) وفتحات عدساتها، وما يحتاجه من تقريب أو إبعاد، وتصغير أو تكبير، وما يُعرف بـ"الزّوم" (Zoom)، كما أنّه يحب الرسم ويميل إليه كثيرًا، وصرّح بذلك أكثر من مرة، وهو دائم الحنين إليه، ويراوده حلم إمساك الريشة والتلوين مجدّدًا ذات يوم... وهو -كذلك- ناقد تشكيليّ، وصل به الأمر حدّ التأليف، كما فعل في كتابه "سيرة لون".

وتجتمع المعرفة بالتصوير والرسم والنقد في اختيار هذه الصورة "الفوتوجرافيّة" (The Photo) أو (Photographic) دون غيرها من تلك الصور الكثيرة التي التقطها الكاتب، ووضعها في كتابه، في بداية كلّ باب أو فصل، وفي ثنايا تلك الأبواب أو الفصول.

وهي صورة التقطها بعدسته هو، ولم يساعده فيها مصوّر أو زميل آخر، وهو بهذا يوائم بين كتابة الكاتب واختيار صورة من تصويره، وإن كان قد أشار في ختام صفحات الكتاب إلى أنّ بعض الصّور كانت بمشاركة أحد الفنّانين، بينما جاءت أخرى بمشاركة إحدى المخرجات[11].

جاءت الصّورة في صفحتين من صفحات الكتاب، هما (98 و99)، لتكون مدخل باب "بلغار الفولجا.. على خطى أحمد بن فضلان"، وهو تحقيق استطلاعيّ مصوّر، نُشر في العدد (650)، من مجلة "العربي" في يناير عام 2013م.

وكأنّه بهذا يريد تأكيد بصمته الإبداعية الخاصة منذ الوهلة الأولى للاطلاع على الكتاب، بل قبل لمسه وتقليب صفحاته؛ فالصورة ستفي بجذب النظرة الأولى إليه، ثم يبدأ بعدها الفضول وحب القراءة والاستطلاع.

---

[11] ينظر: نهر على سفر. ص:324، وفيها يذكر أنّ: الصّور بمشاركة الفنان: سليمان حيدر، وجاءت في الصفحات: (185، و193، و209)، وبمشاركة المخرجة: فاطمة الزّهراء حسن، في الصفحات: (144، و145، و151، و159، و161).

www.aljeelaljadeed.in

ولأهمية صورة الغلاف وتأثيرها الكبير على الرّائي، منذ اللحظة الأولى، كان لا بد من حسن الاختيار، ودقّة التمحيص، وارتضاء أن تكون هذه الصورة مرآة الكتاب كله، وفاتحته، وتقبّل كلّ ما سيأتي جرّاها من انعكاس على صفحة قبول القارئ ورأيه العامّ، سلبًا كان أم إيجابًا.

وتؤدي الألوان دورًا مهمًّا في صورة غلاف "نهر على سفر"؛ فما إن تقع العين عليها حتّى تبحر في هذا اللون الأزرق الذي يملؤها، وهو لون صاف، جميل، يأخذ الروح إلى عوالم النقاء، والتفاؤل، والإبداع... إنّه لون السكينة، والطمأنينة، والانشراح، إنّه لون الهدوء والاسترخاء... وببساطةٍ وعمقٍ في الآن نفسه: إنّه لون البحر، والسماء، والفضاء غير المتناهي... أو هكذا يبدو!

ومع انشراح النفس بهذا اللون العذب الرقراق الذي تتزيّا به فتيات يرتدين زيّهنّ التقليدي، في هيئةٍ تدلّ على أنّهن مؤدّيات أو عضوات في فرقة "موسيقيّة" شعبيّة، يأتي رديفه وهو اللون الأبيض الناصع الذي كان أساس ذلك الزيّ، متناغمًا مع ما يحيط به من لون المعمار الأبيض العاجيّ المحيط، ورخامه اللامع المصقول، وبركة المياه الصغيرة التي تتراقص على حافّتها تلكم الزهرات المتناسقات قامةً وقوامًا وحركات؛ فتنعكس صورتهن على صفحتها الصافية، في مشهدٍ يضيف هالةً من السعادة والحب وقوّة الانتماء إلى ذلك التراث التليد الذي لا يبلى؛ تراث بلدان، وأجيال، وشعوب شتى، يظهر منها معمار هذا "المسجد الأبيض"[12] الأنيق الشاهد على عظمة الدين والتاريخ، وشموخهما، ويمثلها هنا "بلغار الفولجا" الذين ما زالوا يتمسّكون بأصولهم العريقة، ويحتفلون بإسلامهم السمح، النقيّ، الداعي إلى المحبة والخير والسلام؛ فتطرب الروح، وينتعش الجسد، وتتمايل الأغصان بأعذب الأصوات والألحان... فلتغمض العين، لتسمع زقزقات العصافير، وخرير المياه، ولتبحر الروح في "نهر على سفر"، متنقّلة من ضفّة إلى أخرى، ومن وجهة إلى أختها.

وكما يظهر من مقدّمة الكتاب وفهرسه؛ فإن فصوله أو أبوابه جاءت من مجموعةِ استطلاعاتٍ مصوّرة، ومتفرّقة، في أكثر من بلد ومدينة، وفي أعوام مختلفة، التقط

[12] المرجع نفسه، ص:100.

www.aljeelaljadeed.in

خلالها الكاتب صورًا شتى لمناظر عدّة، وبأبعاد وزوايا متعدّدة... ويغلب الظنّ أنّه حين جاء لوضع تلك الاستطلاعات المصوّرة ضِمن كتابٍ يجمعها بين دفّتيه، عمد إلى تلكم الصّور، أو "الألبوم" ليختار منها ما يناسب، في فواتح تلك الفصول، وفي ثناياها.

ويبدو أنّ صورة الغلاف هي التي استأثرت بنصيب الأسد في صدارة الكتاب، وفي أحد فصوله؛ وكانت الأثيرة، والأقرب إلى قلب صاحبها؛ لذكرى طيّبة قضاها هناك، أو لجمال المظهر الذي تمثّله، أو لعذوبة الألوان ورقّة الألحان، أو لكلّ هذا وذاك، وما قد يقال ممّا تراه العين، ويتأوّله الفؤاد... والمطّلع على سيرة الكاتب الذاتيّة، وكتاباته في فصلين من كتابه هذا، حملا عنوانَي: "تتارستان: كتاب البهجة والأشجان"، و"بلغار الفولجا: على خطى أحمد بن فضلان"، يجد أنّه كُرِّم في "تتارستان" أيّما تكريم، واستُقبل في قرية "بلغار" على نهر "الفولجا" استقبال الفاتحين، وأدّت له الفتيات تلكم الرقصات التقليدية، ونظر أهلها إليه نظرتهم إلى الرحّالة العربي "أحمد بن فضلان" (ت بعد 922م) الذي جاء إليهم؛ مفقّهًا لهم في دينهم، ومعلّمًا شرائع ربّهم، وبانيًا المساجد، ومشيّدًا الحصون المنيعة لحمايتهم من أعدائهم... بعدما طلب ملكهم "ألمش بن يلطوار" ذلك من الخليفة العبّاسي المقتدر بالله (282هـ/895م- 320هـ/932م)؛ فكان له ما أراد[13].

وتأتي هذه الصّورةُ خلفيّةَ عنوانِ الكتاب الذي خُطّ بالحجم الكبير، وباللون الأزرق الغامق العريض؛ لمزيدٍ من التناغم والانسجام، يعلوه اسمه "كتاب العربيّ" باللّون الأحمر، وبنوعيّة الخطّ المميّزة التي أصبحت شعارًا معتمدًا لمجلة "العربي" الناشرة هذا الكتاب الذي حمل رقم (101)، في سلسلة ما نشرته، وليكتب تحت العنوان اسم المؤلّف "أشرف أبو اليزيد"، دون لقب أو كنية أو وصف معيّن.

[13] ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العبّاس بن راشد بن حمّاد. رسالة ابن فضلان في وصف الرّحلة إلى بلاد التّرك والخزر والرّوس والصّقالبة، تح: سامي الدهّان. دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي، 1959م، ص:67-68، ونهر على سفر، ص:100 وما بعدها.

www.aljeelaljadeed.in

وفي الزاوية اليمنى من أعلى الصّورة التي ستمثّل صفحة الغلاف الخلفيّ، بعد ثنيها، يأتي تعريفٌ موجزٌ بهذا الإصدار، معنون بعنوان صغير، وبخطّ أغمق ممّا سيأتي من كتابة بعده، مكتوب فيه: "في هذا الكتاب"، وتليه كلمات الكاتب التي ابتدأ بها كتابه، وتحديدًا في الفقرة الثانية من التمهيد المعنون بـ"هذه الرحلات"، واقتُبس منها هذا النصّ التعريفيّ الذي جاء فيه: "حين يسافرُ المرءُ لا يكتشف البشر، ولا يستكشف الأمكنة، بل يعيد اكتشاف ذاته. كانت اللغة تعسِّر علي التواصل حينا، فأقرأ من معجم الابتسامات بضع مفردات، تفتح لي أبوابا مغلقة هنا وهناك، وتيسر مهمتي في التنقل بين النهر والبحر، بين الوادي والجبل، بين الواحة والصحراء، بين المدن الكوزموبوليتانية، والقرى التي لم تمسها نار العولمة"[14]. ولتتوالى بقيّة التفاصيل الأخرى...

وممّا يجدر التنبيه إليه أن نسخة الكتاب الإلكترونية جاءت دون صفحة الغلاف الملونة، والمشار إليها في نسخة الكتاب الورقي، بل اكتفت بصفحة بيضاء، ظهر في أعلاها اسم (كتاب العربيّ) بلونها الأحمر وطريقة الخطّ المميّزة لها، وأسفله مباشرة رقم (101) ضمن شكل المعيّن الهندسيّ وباللّون الأسود، دالاً على رقم الكتاب، ولِيَلي ذلك عنوان الكتاب بالخطّ الأسود العريض، والحجم الكبير، وتحته عنوان فرعيّ صغير: "استطلاعات مختارة من مجلة العربي"، وأسفله: بقلم وعدسة أشرف أبو اليزيد، وهو عكس الترتيب المتّبع في النسخة الورقية التي قدّمت اسم المؤلّف على العنوان الفرعي الصغير: "استطلاعات..." الذي وُضع بلون أبيض، أسفل صورة الغلاف. ولتتبع ذلك كله بيانات التوثيق المعتادة[15].

صورة الهند في "نهر على سفر":

أفرد أشرف أبو اليزيد فصلين أو بابين من كتابه للحديث عن أسفاره إلى الهند، مثلما فعل مع جمهورية "تتارستان" وقرية "بلغار الفولجا" التابعة لها، وهو أمر لم يفعله

[14] أبو اليزيد، أشرف. نهر على سفر. ص:6.

[15] ينظر: موقع "**ثقافات**" الذي أشار إلى إمكانية تحميل الكتاب، في (05 مارس 2016م)، ضمن الرابط التالي: تاريخ الاطلاع: 01 يناير 2020م. http://thaqafat.com/2016/03/30248

www.aljeelaljadeed.in

مع فصول كتابه الأخرى؛ حين عمد إلى تخصيص كلّ فصل لبلد من البلدان التي زارها. وقد يُعزى هذا إلى عدد من الأسباب، يمكن أن يكون من ضمنها كِبر حجم الهند التي يُطلق عليها مع جاراتها مصطلح "شبه القارّة الهنديّة"؛ لضخامتها، واتساع أراضيها. وهو مصطلح يشير إلى قسم كبير من القارّة الآسيويّة، يضمّ البلدان الواقعة على الصفيحة التكتونيّة الهندية، إضافة إلى الجزر المتمركزة على الجرف القاريّ، وهي: الهند، وباكستان، وبنغلاديش، ونيبال، وبوتان، إضافة إلى جزر سريلانكا، وجزر المالديف. ويُطلق مصطلح "شبة القارّة" (The Subcontinent) عادة على "شبه القارّة الهنديّة"[16].

تعود الرّحلة الآن إلى "نهر على سفر" الذي حمل العدد رقم (101) من مجلة "العربي"، والصادر في يوليو عام 2015م، وبفصليه اللذين أفردهما المؤلّف عن الهند؛ معنونًا الفصل الأوّل منهما بـ"تحت سماء كوجرات"، وناشرًا إيّاه في العدد (568)، من مجلة العربيّ، في مارس عام 2006م، ومورده ضمن نطاق الصفحات (114 -143)، فيما تلاه الفصل الثاني مباشرة، بعنوان: "عرش السلطان أكبر"، والمنشور -سابقًا- في العدد (676)، من مجلة "العربي"، في مارس عام 2015م، والمُخصّص بالصفحات (144-163).

يأتي "نهر على سفر"، وضمن قرابة (50) صفحة، في فصلين متتابعين ورقيًّا، ومخصّصين لرحلتين استطلاعيّتين إلى الهند، فَصلت بينهما (9) سنوات؛ بدأت أولاهما في (مارس 2006م)، واختتمت ثانيتهما في (مارس 2015م). وضمن هذه المساحة الورقية، والمدة الزمنيّة يفرغ الرحّالة ما في جعبته من ذكريات، وصور، وأحداث، وانطباعات.

"تحت سماء كوجرات" كانت الرحلة الأولى إلى الهند، وهي رحلة مفعمة بمزيج من المشاعر والألوان، والتوابل والبهارات... وبخليط من الثنائيّات التي تحمل في طيّاتها تناغمًا وانسجامًا حينًا، وتناقضًا صارخًا حينًا آخر... وهكذا هي الحياة.

---

[16] ينظر:

McLeod, John. *The History of India*, First Edition. Greenwood Publishing Group, U.S.A, 2002 , p:1.

www.aljeelaljadeed.in

حمل الفصل عنوان "تحت سماء كوجرات"، وجاء "فوق" صورة "فوتوغرافيّة"، ممتدّة على مساحة صفحتين كاملتين، ومليئة بالألوان القوية التي مثّلت أرضية الفصل، والعنوان، والمضمون... إذ تُظهر الصورةُ أواني معدنيّة صغيرة، مرصوصة فوق صينيّة دائريّة، تحتوي أطعمة تقليديّة، اعتاد أبناء الهند تناولها بهذه الكيفية، وتتناثر على الأرض المتربة، وبجوار هذه الأطباق والأواني والصواني، بتلات الزهور وأوراقها المتعدّدة الألوان والأشكال، بين أبيض، وأصفر، وأحمر قان، في تناغم مع ألوان الأطباق التي جاءت صفراء، وبرتقالية، وبيضاء.

تكاد هذه الصّورة تنطق بالحياة، وتعبّر عن مضمون ما سيأتي بعدها من صفحات تحكي تاريخ أبنائها، وحياتهم.

وفي لغة الصحافة والإعلام فإن الصورة بألف كلمة، وكذلك كان الحال هنا؛ إذ يبدأ الفصل بالفقرة الآتية:

"مساجدٌ ومعابدٌ، شيوخ يتعبدُون آناء الليل، ونسّاك زاهدون عن ضجيج النهار، مناراتٌ تهتزُّ، وأخرى تختفي، بوابات مهجورة، ودروب مزدحمة، بيوت ليس لها من سمت البيوت شيء، وقصور تستعيد أبهة عصور السلاطين، متاحفٌ نادرة في عرض الطريق، ومقتنيات آسرة تحت حراسة مشددة، أضرحة تعانق قبابها المزركشة السماء، وقبور تفترش توابيتها الحجرية الأرض، غابات من صفيح، وأشجار من أسمنت، وأسوار من خيش، وشواهد من حجر، وهواء من رماد، إنها السماء التي تحتها تنام أحمد آباد وسورات وفودرا وغاندي نَجَار، وكثيرٌ من مدن محافظة كوجرات الهندية، متلحفة بألف لون ولون"[17].

تُعدّ الفقرة السابقة بوّابة الدخول إلى ولاية "كوجرات" الهندية، وهي بوّابة ذهنيّة حَدّد أبعادها الرحّالة نفسه، وأطّر زوايا رؤيتها من منظوره الذي أسقطه على فكر المتلقّي وانطباعاته الأولى... وهو أمر حرج ودقيق للغاية؛ وقد يلقي بظلاله على الفصل كلّه؛ سلبًا كان، أم إيجابًا، أم مراوحة بينهما. وقد ينقطع حبل الوصل بين المتلقّي

[17] أبو اليزيد، أشرف. نهر على سفر. ص:116.

www.aljeelaljadeed.in

وكاتبه منذ تلك الخيوط الأولى، كما قد يمتدّ إلى شعور يزداد قوّة ومتانة، ويرافقه طيلة الفصل؛ بحثًا عن المعلومات المختزلة السابقة؛ إمّا تأكّدًا، أو موافقةً، أو تفنيدًا. وبين هذا وذاك يبقى الترقّب والانتظار.

يُعرِّف هذا المدخل المختزل بولاية "كوجرات" الواقعة شمال غرب الهند، ومعالم الحياة وثنائيّاتها المتناقضة والمتناسقة فيها في آن واحد، وينتهي الفصل بفقرتين طويلتين ومترابطتين؛ تتحدث الأولى عن المهاتما غاندي (Mohandas Karamchand Gandhi)؛ (02 أكتوبر 1869م- 30 يناير 1948م)؛ المناضل الكبير الذي أُطلق اسمه على عاصمة "كوجرات" الجديدة: "غاندي نجار"، أو مدينة غاندي، بدلاً من العاصمة القديمة "أحمد آباد"؛ وتتحدث الفقرة الثانية عن "سردار باتيل"؛ رفيق "غاندي"، والقائد المشهور، وابن الولاية، واسمه كاملاً هو: سردار فالاباي جوهافرباي باتل، (Vallabhbhai Jhaverbhai Patel) (31 أكتوبر 1875م- 15 ديسمبر 1950م).

تبتدئ فقرة "غاندي" بقول الرّحّالة/الكاتب: "في الطريق إلى العاصمة غاندي نجار، أو مدينة غاندي سنتوقف في (غاندي أشرم)، المنزل الذي نستعيد فيه حياة المهاتما غاندي، وهو المكان الذي عاش فيه المناضل الكبير، وبه ترك منضدته وسترته وأدواته، ومنها مغزله الشهير"[18]. ويكمل: "يقول غاندي: (على المرء ألا يحوز أو يحتفظ بما ليس في حاجة إليه، من مأكل وملبس وأثاث)"[19].

ومع ختام فقرة "غاندي" السابقة تأتي آخر فقرة في الفصل، متحدثة عن "سردار"، ومسدلة الستار على الولاية كاملة، وفيها يورد الرحّالة/الكاتب قول "سرادر باتيل": "رغبتي الوحيدة أن تصبح الهند قوة منتجة، لا يجوع فيها إنسان، ولا يبكي فيها أحد من أجل لقمة العيش"[20]، ليعلّق بعدها قائلا: "بعد أكثر من خمسين عاما من رحيل سردار، لم تزل رغبته عصية على التحقق، مع أكثر من مليار نسمة

[18] المصدر نفسه، ص:142.

[19] المصدر نفسه، ص:142-143.

[20] المصدر نفسه، ص:143.

www.aljeelaljadeed.in

يسكنون بلاده... قرب مسرح طاغور، وأمام حديقة بسيطة، قرأت على شاهد من الرخام الأسود هذه العبارات (شجرة سلام، مهداة من المنظمات غير الحكومية في كوجرات، بواسطة تشاندرا شيكر، في 25 فبراير 2003م، رئيس وزراء الهند السابق، لتخليد مشاهد التماسك والأخوة خلال القلاقل المدنية التي عصفت بكوجرات في 2002). في تلك الحديقة انتصبت الشجرة الصغيرة التي لا تعلو المترين، فوق مربع على أركانه أهرامات صغيرة من الأحجار الملونة. إنها الألوان التي تعيش تحت سماء كوجرات، تحلم بالسلام"[21].

تختزل الفقرتان السابقتان سيرة عدد من عظماء الهند عامّة، و"كوجرات" خاصّة، كما لا تنسى الفقرة الأخيرة التذكير بحدث مهم كان قد وقع في "كوجرات" سنة 2002م، وهو حدث رغم ما خلّفه من دماء وأحداث مريرة، إلا أنّه أدّى إلى تماسك الأخوة في الشعب الواحد، وإن اختلفت الأعراق والديانات... فمع اندلاع أعمال العنف والتقتيل في حق الأقليّة المسلمة في "كوجرات"، تلك السنة؛ إلا أن الشعب قال كلمته، ونبذ تلك العنصرية التي حاولت إشعال فتيلها عصبة من المتطرفين، ووقفت يدًا واحدة مع الحقّ... وكان هذا هو المكسب الأعظم الذي خرج به من بين الركام[22].

ويأتي التعليق على لسان "أ.عبّاس"، إحدى الشخصيات التي التقى بها الكاتب والمستطلع، بقوله: "إنها المرة الأولى في تاريخ الهند، أن تحدث مذبحة للمسلمين وأن يتم تدمير لممتلكاتهم بمثل هذه الطريقة المنظمة..."[23]، وهو يُرجع الأمر إلى قضايا سياسية وخارجية؛ فيردف الكاتب قائلا: "كنتُ أعتقدُ قبل لقائي بعباس أن الحسّ المؤامراتي يرتبط بقضايانا فقط، لكنني وجدته يرتبط أيضا بقضايا أخرى، ولدى المدافعين عنه مبرراتهم"[24].

---

[21] المصدر نفسه.

[22] ينظر الحديث عن هذا الأمر في صفحات الفصل السابقة.

[23] أبو اليزيد، أشرف. نهر على سفر. ص:116.

[24] المصدر نفسه، ص:118.

www.aljeelaljadeed.in

ويعود الكاتب الصحفيّ إلى هذه القضية الحسّاسة والشائكة في المجتمع الهندي متعدّد الأعراق والديانات والطوائف؛ فيطرقها من باب العلم والعمل ونسبة المسلمين من الهندوس فيهما؛ فيلحظ الفرق الكبير والبون الشائع بين حظّ هذا وذاك، ويؤكّد هذه الحقائق بالأرقام القاطعة التي لا تدع مجالاً للشكّ في صحتها؛ فيقول: "تتحدث الصحف عن النائب الهندي الذي يحذر من مخاطر زيادة المسلمين في كوجرات، مقارنة بنقص عدد الهندوس. إنه النائب يريد أن يبقى التوازن قائما، حتى لا يختل النسيج الاجتماعي. يبلغ عدد المسلمين نحو 8٪ من خمسين مليونا (ستون بالمائة منهم من النساء) هم سكان كوجرات، أقلية تستحق أكثر مما تناله من خدمات ورعاية للمقدسات ووظائف"[25].

ويضرب مثلاً على التعليم فيقول: "إن الأرقام لا تتوقف عن بيان الفارق الشاسع بين الحضور الغائب للأقلية المسلمة في مقابل الحضور الراسخ للأغلبية الهندوسية في التعليم، على سبيل المثال: فمن بين العدد الكلي للطلاب الذين يكملون دراستهم في جامعة كوجرات بعد مراحل التعليم الأولية، يبلغ عدد المسلمين 1ر5٪ فقط، فيما تبلغ نسبة الهندوس 7ر93٪..."[26].

وليعلّق على ما سبق قائلاً: "ولكن ذلك التطور يستثني الأقلية المسلمة، التي يصفونها بـ (الأخ الأصغر) التي عليها أن تقبل بإملاءات أخيها الأكبر!"[27].

ويستمر الصحفيّ المستطلع في تحقيقاته وعرض مشاهداته؛ فيرصد هذه المرّة قضيّة "السّيديّين" الأفارقة الذين أحضروا في البدء عبيدًا، ثمّ استقرّ بهم الحال في الهند، أيّام الاستعمار البريطاني، والهولندي، والبرتغالي... وغيره، ليشكّلوا فئة فقيرة مهمّشة، لها ملامحها الخاصة في الوجوه السمراء، والملابس، والمساكن، والعادات، وطريقة نقش الأبواب والنوافذ والشرفات، وحتى في قبورهم التي تعلوها الأعلام الخضراء، الموجودة على قارعة الطريق في "أحمد آباد" و"سورات"... وعزاؤهم الخاص

[25] المصدر نفسه، ص:123.

[26] المصدر نفسه.

[27] المصدر نفسه، ص:124.

www.aljeelaljadeed.in

يكمن في فخرهم بـ"بلال بن رباح" الحبشي رضي الله عنه؛ مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم، وبأنهم أحفاد هذا الصحابي الجليل.

وعلى العكس من هؤلاء "السيديّين" الأحباش القادمين قسرًا من أفريقيا إلى "كوجرات" تعيش طائفة أخرى من المسلمين المهاجرين من "كوجرات" إلى جمهورية جنوب أفريقيا، وخاصة في تلك الضواحي المتاخمة للعاصمة "جوهانسبيرج"، وليكوّنوا هناك مجتمعًا هنديًّا مصغّرًا، يحتفظ بعاداته وتقاليده في الأعياد والملابس والزواج... ويقتبس بعضًا من تقاليد الهندوس[28].

وتعود المفارقة الصارخة مجدّدًا بأرقامها ولقطاتها وواقعها؛ لتعكس ما تقع عليه عينا المصوّر والصحفيّ والمستطلع، وليدوّنه قلم الكاتب الرحّالة حين يخطّ:

"أقرأ أحدث تقرير عن كوجرات: تحققت للولاية أعلى نسبة نمو اقتصادي في الهند، وهي 15٪ خلال السنة المالية 2004/3م، وبنسبة 3ر 10٪ خلال السنوات الثلاث الماضية، وهي النسبة الأعلى أيضا. لكن الأرقام غير ما سنراه، تُصافِحُنا في المدينة مشاهدٌ وتَصْفَعُنا مشاهدٌ أخرى: شحاذون ليس فيهم من الحياة سوى الأنفاس، ومحسنون لست تعرف عنهم غير الأسماء، بيوتٌ تراثية آيلة للسقوطِ، ومجمعاتٌ جديدة تتحدث بلغة العولمة، أطواق من ورد متوهج وسحابات من عطور التوابل النفاذة، جِمالٌ لجرِّ العربات، وأفيال لمؤانسة السياح، وبقر للعبادة، وخيول للقيادة، غربانٌ وعصافيرُ، فراشات خضراء وسناجب سمراء، بحيرةٌ تغرد فيها مراكب شراعية، وعشوائيات تتعذب تحت وطأة التلوث، دراجات نارية، وعربات ريكشا، سيارات يحركها العادم، وأخرى تحرك الغبار، شعارات رنانة تخفي تحتها الكثير، وعبارات فضفاضة عن رياح التغيير، وآراء تلونها الأيام، مصانع تقليدية يدوية تتقرض، وأخرى ديناصورية تنهض متخمة بالمال والعمال والآلات الحديثة، آلهة هندوسية مصنوعة من الورق والحجر والخشب، وعباد مسلمون يعيشون في بيوت من ورق وحجر وخشب!"[29].

---

[28] المصدر نفسه، ص:119-121.

[29] المصدر نفسه، ص:121.

www.aljeelaljadeed.in

لقد عبّرت الفقرة السابقة بمفارقاتها وكلماتها ورموزها، عمّا أحسّ به الكاتب، وأراد إيصاله إلى متلقّيه، واختتم ذلك كلّه بعلامة التأثّر ودلالتها التعجبية هنا، وإسقاطاتها التي تبقى حمّالة أوجه متعدّدة.

وبين فقرة البدء، وفقرة الختام -أو فقرتيه- وما يتخلّلها من فقرات عدّة، يزخر الفصل بتفاصيل كثيرة، ومعلومات، وإحصائيّات، وأرقام متتالية ودقيقة، عن حقائق ووقائع دوّنتها سجلات التاريخ والمؤرخين، ورصدتها عدسات المصوّرين، وسطرتها أقلام الصحفيّين، وتناقلتها أصوات المذيعين، وبثّتها قنوات الإعلام وشبكات التواصل الحديثة في كلّ آن وحين.

فمن نظرته الإنسانية الصادقة لتلك الحالات التي يمرّ بها كثير من طبقات الشعب الفقيرة عامة، والمسلمة خاصة، من تهميش، ومعاناة، وفقر، وسوء حال... إلى رصده لمنازل ليست كالمنازل في شيء! فلا سقف يغطيّها، ولا نوافذ يتسلّل النور من خلالها، ولا درج يربط بين طوابقها! إلى محاولته تسليط الضوء على قضية من القضايا الشائكة في المجتمع، ثمّ اقتراح بعض الحلول على عدد من المسؤولين؛ علّها تكون ناجعة ناجحة؛ فيسعد بها الشعب، ويؤيّدها الجمهور، وتدعمها الحكومة، وتعمّ فائدتها الشرائح كافة.

وهكذا.. فبينما جاءت فقرة بدء الفصل كاملاً قصيرة، ومختزلة، وقاتمة، ومتخمة بالثنائيّات والتناقضات الصارخة، ومزدحمة بتعقيدات الحياة وتغيراتها المتسارعة؛ جاءت فقرة الختام أكثر طولاً، واتسمت بالهدوء النسبيّ، والسكون -في عمومها- محاولة بثّ الأمل والطمأنينة في النفوس، ومُناغمة بين كلمات الفصل الأولى في عنوانه الرئيس "تحت سماء كوجرات"، وبين آخر كلمات الفصل التي كرّرت العنوان كاملاً، واحتوته بين جنباتها: "إنّها الألوان التي تعيش تحت سماء كوجرات، تحلم بالسلام". وهو حلم وأمل يراود إنسان هذه البسيطة ما دام حيًّا... فلتستمرّ الآمال، ولتصدّقها الأحلام، ولتحقّقها الأعمال، وليعمّ السلام يومًا ما.

ويأتي الفصل الثاني من فصول الكتاب الذي يستطلع صورة الهند لدى الرحّالة، ليكون أقلّ حجمًا، بمجموع عشرين صفحةً مقابل ثلاثين للفصل الأوّل، وليتساويا

www.aljeelaljadeed.in

معًا في عدد الصفحات المفردة للصّور؛ بخمس صفحات لكلّ منهما، منها صفحتان كاملتان بداية كلّ فصل؛ ممثّلة خلفيّة العنوان الكبيرة، وليعنون هذا الفصل بـ"عرش السلطان أكبر"، وهو عنوان يناسب محتواه، ويتناغم معه، وتمهّد له تلك الصورة التي تمثّل جزءًا من شرفات ذلك العرش أو القصر المنيف الذي بُني للسلطان "جلال الدين أكبر"، المولود في (15 تشرين الأوّل عام 1542م)، والمتوفى في (13 تشرين الأوّل عام 1605م).

يتكرّر في هذا الفصل، كسابقه، ذكر الأرقام والإحصائيات والتواريخ المؤكّدة صدق المعلومات الواردة ودقّتها، كما يتخلّل تلك الأرقام والتواريخ والإحصائيّات الصارمة حديث عن عمل سينمائيّ ضخم "فيلم"، تناول هذه الشخصية التاريخية المؤثّرة في تاريخ الهند، وعُنون بـ"جودا أكبر"، ويسترجع الكاتب الإعلاميّ هنا لقطات من ذلك العمل، ومشاهد مؤثّرة منه، كما يعقد مقارنة سريعة بين شخصيّتي السلطان الحقيقيّ والممثّل المؤدّي لها، وينقل شعوره لحظة رؤيته الممثّل/السلطان، وهو يجتاز السجادة الحمراء، في "مهرجان المنبر الذهبي الدولي لسينما العالم الإسلامي" (قبل أن يتغيّر اسمه إلى "مهرجان قازان الدولي لسينما العالم الإسلامي")، وتسليم جائزة أفضل ممثّل عن هذا الدور لـ"هريثيك روشان" (Hrithik Roshan) (يُنطق ريتيك روشان)، (وبالهنديّة: ऋतिक रोशन)، والمولود في بومباي، في 10 يناير عام 1974م.

يُعدّ هذا الفصل تاريخيًّا في معظمه؛ فهو يحكي سيرة السلطان جلال الدين أكبر، والأقوال المبالغة في ذكر صفاته التي تصل في بعضها حدّ الخوارق... ويُلمح في كتابة الرحّالة هنا بعض التشكيك فيما يقرؤه عن هذه الشخصية، وعدم التسليم بصحّة ما يقرأ، كما في قوله: "كنتُ أبحث عن شخص امتلك كلّ هذه الصفات... وبين المحبة والبغض، وبين الحقائق والأساطير، وبين دلهي وأجرا، ومدن وعواصم أخرى، وجدت طرفًا في سيرة ذلك الرجل..."[30].

[30] المصدر نفسه، ص:146.

www.aljeelaljadeed.in

وفي رحلة البحث عن الحقيقة، وتتبّع خطوات التاريخ، المحفورة في الزمان والمكان وذاكرة الإنسان، تتعالق الخيوط، وتتشابك الأيدي، وتترابط الأدوات، وتتنقّل الأقدام تارة والعربات تارات أخرى؛ لتدوّن معلومة هنا، وتلتقط صورة هناك، وتريح النفس مرّة، وتمتّع العين مرّة ثانية... وتخرج بسيرة سلطان ما زال الحديث عنه باقيًا ما بقيت الهند وبقي التاريخ.

لغة الكاتب:

جاءت لغة الكاتب صافية رائقة في عمومها، مع أسلوبٍ روائيّ عذب، وطريقة تجمع بين أسلوب المذكّرات الشخصية وتدوين المشاهدات في أدب الرحلات، وهو ما يعرف في الأدب الحديث بتداخل الأجناس الأدبية، كما يأتي الجمع بين التوثيق، والتحقيق، والاستشهاد بالأقوال والتواريخ والأرقام بأسلوب سلس، ومباشر، ودقيق. وقد لجأ الكاتب في مواضع أخرى من صفحاته إلى الاستشهاد بالقرآن الكريم، أو نقل نصوص بحرفها دون تغيير؛ تقويةً لحجّته، وتأكيدًا لصدق ما ذهب إليه[31].

وبين هذا وذاك ترد بعض الأخطاء اللغوية التي تناثرت بين صفحات الفصلين اللذين تناولا صورة الهند لديه؛ فكثرت الأخطاء الصرفيّة، والنحويّة، ووردت بعض الأخطاء الأسلوبيّة، والإملائيّة، والمطبعيّة، ومنها قوله:

"مساجدٌ، ومعابدٌ... ومتاحفٌ"، ومشاهدٌ[32]... إلى غيرها من الكلمات التي وردت منوّنة، وحقّها أن تكون ممنوعة من الصرف؛ لأنّها جاءت على صيغة "منتهى الجموع"، وأشهر أوزانها: "مفاعِل"، و"مفاعيل".

ووردت الأخطاء النحوية، مثل قوله: "وهو ما جعل للهند نصيب في تجارة العبيد"[33]، والصواب: نصيبًا؛ لأنّها مفعول به للفعل (جعل).

---

[31] انظر مثلاً الاستشهاد بآيات من القرآن الكريم، ص:154، ونقل ذكر أوصاف السلطان جلال الدين أكبر، ص:146.

[32] المصدر نفسه، ص:116 و121.

[33] المصدر نفسه، ص:119.

www.aljeelaljadeed.in

وانتشرت الأخطاء الإملائيّة في الكتابة، مثل: الاسلام، والانسانيّة وما شابههما، بهمزة وصل لا قطع[34]، بينما جاءت بعض الأخطاء المطبعيّة، مثل: وجود علامة التنوين على أوّل حرف في الكلمة، نحو: مُلك، أو وضع تنوين الضّمّ بدلا من الضمّة الواحدة، نحو: "فاتح الهند وجَدٌ سلطاننا جلال الدين"[35].

كما ظهرت بعض الأخطاء الشائعة، مثل قوله: "الأقمشة التي تم تصنيعها في كوجرات"[36] والصّواب: الأقمشة المصنوعة، أو المصنّعة، أو الأقمشة التّي صُنِعت، أو صُنِّعت، دون حاجة إلى قول "التي تمّ تصنيعها". ولدى ترجمة الجملة السابقة إلى اللغة الإنجليزية يرد الآتي: "Fabrics made in Gujarat". وباللجوء إلى ترجمة هذه الجملة الإنجليزية -عكسًا- إلى اللغة العربية؛ يتأكّد صحة ما سبق؛ بمجيء الترجمة على النحو الآتي: "الأقمشة المصنوعة في ولاية غوجارات".

وفي المقابل فقد برع الكاتب في استخدام لغة السرد والوصف، وكان كثيرًا ما يلجأ إلى الرسم بالكلمات، في وصفه الأبنية والشواهد الأثريّة إضافة إلى المشاهد الحيّة التي تقع عليها عيناه، على الرغم من أنّ بعض تلك الأوصاف كانت ستزداد رونقًا وجمالاً لو أنّه قوّاها بالتقاط صور لها بعدسته، وإرفاقها بها، مثل حديثه عن بعض النقوش المعماريّة الدقيقة، وحديثه عن مصانع الألماس وأنواع الآلات المستخدمة في معالجته[37]، ووصفه المتاحف التي زارها، مثل: "متحف كاليكو" لصناعة النسيج في "أحمد آباد"[38].

كما برع الكاتب في انتقاء عناوينه التي طرّز بها صفحات فصليه عن الهند؛ فجاءت مدخلاً مركّزًا، ومشوّقًا في الغالب، واستخدم فيها الخيال والجمال معًا، ووظّف اللغة في خدمة هذا وذاك؛ فجاءت حمّالة أوجه، ومطواعة لأكثر من تأمّل وتأويل،

---

[34] المصدر نفسه، ص:119، و148.

[35] المصدر نفسه، ص:148.

[36] المصدر نفسه، ص:132.

[37] المصدر نفسه، ص:141.

[38] المصدر نفسه، ص:132-133.

www.aljeelaljadeed.in

ومثال ذلك عناوينه: الثورة البيضاء، ومانشستر الهند، ومعابد تيك أواي، وخوذة لكل مواطن، وماسّة وسط الركام، والأربعة الكبار في ظلّ شجرة سلام، ولقاء مع البرتغاليين، وسطور "أكبر نامه"، و"ترويض الفيلة وصيد القردة"، وبداية ونهاية. وكان يلجأ إلى التناغم بين عنوان الفقرة وختامها؛ بتكرار كلمات العنوان نفسها في الختام، وأقوى ما يكون ذلك في عنواني الفصلين نفسيهما: "تحت سماء كوجرات"، و"عرش السّلطان أكبر". وقد مرّ بيان ذلك لدى الحديث عن العنوان الأوّل، وهنا مثال العنوان الثاني، حين ينهي الكاتب فصله الثاني والأخير عن الهند بقوله: "هنا عرش السلطان أكبر الذي جمع خصالا وخصائل فرقت الآراء حوله، ولكنه يبقى رمزًا لإمبراطورية كبيرة، ذهب رجالها، وبقيت آثارها، وعاشت قصصها تُروى، من أجل عبر وآيات منسية، أو تكاد"[39].

خاتمة البحث:

كانت هذه الرحلة مع "نهر على سفر"، وهي رحلة طوّف صاحبها بمتلقّيه في آفاق رحبة ومعالم عدّة، تنقّل فيها بين البنيان والإنسان، ووصف فيها البلدان والعمران، وغاص في أعماق التاريخ، ودوّن الأحداث، ووثّق بالحقائق والوقائع والأرقام، وأدلى بآرائه، وقدّم اقتراحاته، ووظّف أدواته التي اكتسبها على مرّ السنين؛ فكان أديبًا، ورحّالة، ومصوّرًا، ورسّامًا، وصحفيًّا، وناقدًا... وكان قبل ذلك كلّه إنسانًا صادقًا، محبًّا، حاول إيصال الصورة الجميلة والانطباعات المشرقة عن تلك البلدان التي زارها، ومنها جمهورية الهند، بحضارتها العظيمة، وتاريخها التليد، ولينعم المرء فيها بالضياء "تحت سماء كوجرات"، وليستعيد الماضي العريق وهو يتأمل "عرش السلطان أكبر"... وليكون كل هذا وذاك دعوة لرؤيته رؤيا العين، ولتجربة حيّة في ارتياد الآفاق، والغوص في أعماق التاريخ والزمان والمكان والإنسان.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

[39] المصدر نفسه، ص:163.

www.aljeelaljadeed.in

- ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص، تح: محمد علي النجّار، ط2، ج2. القاهرة: دار الكتب المصريّة، 1952م.
- ابن عقيل، عبد الله بن عقيل العقيليّ المصري الهمْداني. شرح ابن عقيل على ألفيّة ابن مالك، ط20، ج3. القاهرة: دار التراث، 1980م.
- ابن فضلان، أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد. رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والرّوس والصقالبة، تح: سامي الدهّان. دمشق: مطبوعات المجمع العلمي العربي، 1959م.
- أبو اليزيد، أشرف. نهر على سفر: استطلاعات مختارة من مجلّة العربيّ، كتاب العربيّ (101)، دولة الكويت: وزارة الإعلام- مجلة العربي، ط1، 2015م.
- الأنصاري، ابن هشام. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط1. بيروت- لبنان: دار الفكر، 1992م.

الكتب الأجنبية:

- McLeod, John. *The History of India*, First Edition, Greenwood Publishing Group, U.S.A, 2002.

R.N.I No DELARA/2017/74554

ISSN: 2581-3455

AL- JEEL AL- JADEED

International Half-Yearly Refereed Journal

Vol. No. 3 | Issue. No. 06 | January-June 2020 | New Delhi

ISSN 25813455

Printed and Published by Prof. Rizwanur Rahman. Centre of Arabic and African Studies.
Printed at J K Offset Printers, 315, Gali Garahya, Jama Masjid, Delhi-110006
Published from Centre of Arabic and African Studies, SLL&CS,JNU, New Delhi-110067

Editor: Prof. Rizwanur Rahman